من ملامح كتاب « وسوم دار الخلافة »

المآصر

في بلاد الروم والاسلام

— ١ —

ميخائيل عواد

تصدير

من يطالع التصانيف العربية القديمة ، وخاصة ما وضعه وصّاف البلدان ومن طوّف في الاصقاع ، يجد أموراً شتى ، تتطلب منه الوقوف والتريّث ، لما لها من خطر ، وذلك استجلاء لمعانيها التي كادت تخفى علينا الآن لبعد العهد بها ، واستيضاحاً لما كانت عليه في تلك العصور الخوالي

ونذكر اننا وقفنا منذ سنين على شيء من هذا القبيل يتعلق بضرب من المطاحن المائية كان يطلق عليه في العصور الاسلامية اسم « العروب » فرأينا أن نستقصي ما ورد عنها في كتب الأدب والتاريخ والبلدان ، فحصل لنا من ذلك شيء وفير ، مكّننا من وضع بحث فيها ونشره (١)

وسننشر بحوثاً من هذا القبيل ، توضح ما جاء في تلك المؤلفات من مثل هذه المصطلحات والأوضاع التي كانت يومذاك أمراً مفهوماً معروفاً بين أكثر الناس ، ثم تغيّرت الاحوال فخفي معناها وعسر فهم مدلولها أو كاد

وهانحن أولاء نبحث في ناحية لا نظنّ ان أحداً من الكتبة المحدثين قد طرق بابها ، نعني بها « المآصر » النهرية والبحرية ، فنقول :

كان مما عني به أولئك البلدانيون ، النعوت المختلفة لمواصل البحار ، فوصفوها بما أوتوه من علم ومعرفة ، وحصّلوا مواقعها بقسط وافر من هذا الوصف ، تلك المواني،

(١) العروب في العراق (رسالة المشرق ، العدد ٣٦٠ ، ص ٨٩٤ — ٨٩٦)

العجيبة التي كانت تعجّ بالسفن الذاهبة والقادمة والراسية . ولاعجب من قول بعضهم في صفة ميناء أطرابلس : بأنه « ميناء عجيب يحتمل الف مركب [1] » وان « المراكب تحط فيه ليلا ونهاراً ، وترد بالتجارة على مرّ الاوقات والساعات صباحاً ومساءً ، من بلد الروم وأرض المغرب بضروب الامتعة والمطاعم [2] »

وأهم ما يسترعي الاهتمام في كثير من هاتيك الموانىء ، وجود سلسلة ضخمة من الحديد تعترض الميناء فتحده من جهة البحر ، رسخ أحد طرفيها في صخرة مرتفعة مشرفة على جانب الميناء ، وربط طرفها الآخر بقفل محكم الصنع وُضع داخل برجٍ مطل على الميناء من جهته الثانية ، ويجلس في البرج المذكور شخص يطلق عليه اسم « صاحب القفل » عنده الأمر والنهي في خروج السفن من الميناء ودخولها اليه فيعمل على رفع السلسلة ، أو على خفضها

وشبيه بهذا ما كان يجري في بعض الاحيان ، غير انه كثيرا ما استبدلت السلاسل بالقلوس ، والابراج بالسفن الحربية ، كما سيجيء تفصيله

ويطلق على هذه كلها « المآصر » وكانت الثغور ذات المآصر ، تتمتع من جهة البحر ، بسلام لايضارعها فيه إلا تلك المدن التي تحيطها الاسوار ويحرسها الحرّاس ، فالمآصر اذن الحصن الحصين لبعض الموانىء وسدّها المنيع ، تدفع به عنها كل غزو يأتيها من جهة البحر

وكانت الضرائب والعشور تجبى عند هذه المآصر على كل مالٍ وطعامٍ وحيوان وغير ذلك مما يدخل البلاد أو يخرج منها على ما سنبيّنه في مطاوي بحثنا

١ — المآصر البحرية

(أ) المآصر في كتب اللغة وأمثالها

يعتبر الصحاح للجوهري (المتوفى سنة ٣٩٣ للهجرة) من أقدم المعاجم التي ذكرت للمآصر فقد قال في مادة (أ ص ر) ما نصه : « أصر : أصره يأصره أصراً حبسه ، والموضع مأصَر ومأصِر ، والجمع مآصر ، والعامة تقول معاصر [3] »

ويقول الراغب الاصفهاني (المتوفى سنة ٥٠٢ هـ) في مادة (أ ص ر) : « الاصر عقد

---

(١) البلدان لليعقوبي : ص ٣٢٧ طبعة دي خويه ـ ليدن .

(٢) صورة الارض كتاب المسالك والممالك — لابن حوقل : ص ٦٩ طبعة كريمرز ، ليدن

(٣) الصحاح ١ : ٢٨٠ ، بولاق

الشيء وحبسه بقهره ، يقال أصرته فهو مأصور ، والمأصَر والمأصِر محبس السفينة [١] »

وفي أساس البلاغة للزمخشري (المتوفى سنة ٥٣٨ هـ) في مادة (أ ص ر) أيضاً قوله : « . . . ومضى فلان الى المأصر وهو مفعل من الأصر ، أو فاعل من المصر بمعنى الحابس ولعن الله أهل المآصر أو المواصير [٢] »

وجاء ابن منظور (المتوفى سنة ٧١١ هـ) فأفصح لنا أموراً لم يذكرها من سبقه من أرباب اللغة . فقد قال في مادة (أ ص ر) ما هذا بحروفه مع ترك الاجابة لنا به في موضوعنا : « . . . والمآصر هو مأخوذ من آصرة المهد فما هو عقد ليحبس به . . . » الكسائي . أصرني الشيء يأصرني أي حبسني ، وأصرت الرجل على ذلك الامر أي حبسته ، ابن الاعرابي : أصرته عن حاجته وعما أردته أي حبسته ، والموضع مأصِر ومأصِر ، والجمع مآصر ، والعامة تقول معاصر . . . والمأصر يعد على طريق أو نهر تؤصر به السفن والسابلة ، أي يحبس لتؤخذ منهم العشور [٣] » اه

أما الفيروز آبادي (المتوفى سنة ٨١٧ هـ) فقد أشار اليها في مادة (أ ص ر) اشارة خفيفة بقوله : « والمأصِر كمجلس ومرقد المحبس ج مآصر ، والعامة تقول معاصر [٤] »

وتلاه السيد (مرتضى الزبيدي صاحب التاج (المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ) فذكرها أيضاً في مادة (أ ص ر) ملخصاً أقوال بعض من تقدمه ، قال [٥] : « والمأصر مفعل من الاصر أو فاعل من المصر بمعنى الحابس . ولعن المآصر ، هكذا في الاساس ولم يفسره ، وفي اللسان : والمأصر يعد على طريق أو نهر يؤصر به السفن والسابلة أي يحبس ليؤخذ منه العشور . . . »

قال نصر الهوريني في تعليق له على ما جاء في التاج : « قوله ولعن المآصر كذا بخطه ، والذي في الاساس : ولعن الله أهل المآصر أو المواصر أو قوله ولم يفسره تفسيره هو ما ذكره عقبة عن اللسان .

وقد نبهنا ابو منصور موهوب الجواليقي (المتوفى سنة ٥٣٩ هـ) الى خطأ شائع في لفظ المآصر ، وقع فيه أكثر اللغويين الذين تطرقوا الى ذكرها ، فقال : « . . . وهو المأصر بكسر الصاد ، وفتحها خطأ . ومعنى المأصر في اللغة الموضع الحابس من قولهم :

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص ١٧ ؛ (٢) المصنف المليحة ؛ (٣) أساس البلاغة ؛ ١٤ ؛ طبع دار الكتب المصرية ؛ (٤) لسان العرب ٥ : ٨٠ — ٨٢ بولاق ؛ (٥) القاموس المحيط ١ : ٣٦١ بولاق الطبعة الثانية ؛ ٣ : ٨ ؛ (٥) تاج العروس ؛ ٣ : ١٥ ؛

أصَرت فلاناً على الشيء أأصِره أصراً إذا حبسته عليه وعطفته »[١]

وممن ذكرها أيضاً ابو عبدالله محمد بن احمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي (المتوفى سنة ٨٣٧ هـ) ، فقد قال في تعريفها : « المأصرُ : سلسلة او حبل يشد معترضاً في النهر ، لمنع السفن من المضي »[٢]

هذا ، وقد نُسب الى المأصر نفر من الناس . قال القاضي ابو سعد عبد الكريم السمعاني (المتوفى سنة ٥٦٢هـ) في مادة (المأصري) : بفتح الميم والضاد (كذا ، والصواب العاد) المكسورة بينهما الألف وفي آخرها الراء . هذه النسبة الى مأصر ، وسأذكر السبب فيه . والمشهور بهذه النسبة ابو بشر يونس بن حبيب بن عبدالقادر بن عبد العزيز بن عمر ابن قيس بن أبي مسلم العجلي المصري ، كان له محل عظيم ، كاتبه المعتز بالله كتاباً بالنظر في أمر متظلم تظلم اليه ، وهو ابن أخت حبيب بن الزبير الذي روى عنه شعبة وكان ينزل المدينة وكان ابو مسلم من سبي الديلم ، سباه أهل الكوفة وحَسن اسلامه فولد له قيس المأصر ، ويقال انهُ مولى لعلي بن ابي طالب ثم ولاه المأصر ، وكان اول من مصر (كذا والصواب مأصر) الفرات ودجلة ، فهي قليس (كذا ، والصواب قلس) المأصر . والنسبة اليه مأصري . وكان ممن خرج مع عبدالرحمن بن الاشعث امام الحجاج مع القراء ، فلما هزم ابن الاشعث هرب عبدالعزيز وعمر بن قيس مع اهله الى اصبهان واقام عمر بن قيس المأصر بالكوفة . . . . . فهذه قصة قيس الماصر ، واما ابو بشر يونس بن حبيب . . قلت توفي قبل الثلثمائة »[٣]

واختصر هذا الكلام جلال الدين السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هـ) فقال : الماصري : بكسر الهملة وراء الى قيس الماصر ، لأنهُ اول من مصّر (كذا ، والصواب مأصّر) الفرات ودجلة »[٤]

هذا جل ما وقفنا عليه بشأن الماصر في الأسفار اللغوية القديمة ، واما ما جاء عنها في المعاجم الحديثة ، فلا يعدو ان يكون تكراراً لما سبق لأنهُ في الحقيقة منقول ومنبعث عن هاتيك التصانيف القديمة . ومن ثمة اكتفينا بالاشارة الى ذلك دون ان نعمد الى ايراد ما جاء فيها[٥]

---

(١) تكملة الاصلاح ما غلط فيه الناشئة ص ٢٨ طبع دمشق . (٢) مفاتيح العلوم ص ٧٠ طبعة فان فلوتن في ليدن . (٣) الانساب ، الورقة ٥٠٣ ب ، مصورة مرجليوث ، ليدن) ٤) لب اللباب في تحرير الانساب ص ٢٣٤ طبعة فنت ، ليدن سنة ١٨٤٠

(٥) انظر مثلاً : محيط المحيط لبطرس البستاني ١ : ٢٥ ؛ اقرب الموارد لسعيد الشرتوني ١ : ١٢٤ ؛ البستان لعبدالله البستاني ١ : ٤٤ ؛ دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي ١ : ٨٤٠ ؛ مادة أ ص ر ؛ معجم لين ١ ص ٦٣

(ب) المآصر في كتب البلدان

ان أفصح الانباء التي اتصلت بنا بصدد المآصر النهرية ، ما اخبرنا به ابن رسته (الذي صنف كتابهُ في سنة ٢٩٠ للهجرة) في كلامهُ على الطريق بين بغداد والبصرة ، فقد اوضح لنا ماهيتها ، وشرح طريقة استخدامها ، ودونك ما قاله : « من بغداد الى المدائن ومن المدائن الى دير العاقول ، ومنهُ الى جرجرايا ، ومنه الى جبل ، ومنه الى نهر الصلح ، ومنه الى واسط ومنه الى نهر بيْن ومنه الى الصينية ومنه الى الحوانيت ومنه الى القطر . وهذه القرى من واسط الى هذا الموضع كلها شرقي دجلة . وبالحوانيت [1] اصحاب السيارة [2] والمآصر من قبل السلطان . والمآصر ان تشد سفينتان من احد جانبي دجلة وسفينتان من الجانب الآخر وتعقد السفن على شطين . ثم تؤخذ قلوس [3] على عرض دجلة وتشد رأسها الى السفن لئلا تجوز السفن بالذيل »[4]

وقد ذكرها ابن رسته في موطن آخر من كتابه بقوله : « وبدير العاقول مسجد جامع واسواق ومآصر ، وبها اصحاب السيارة ومآصر على دجلة »[5]

* * *

﴿ الذيل ﴾

(١) السيارة : « ضرب من السفن . وجاءت صحيحة بصورة (شيارة) في تاريخ الطبري في غير موطن . وجاء في معجم دي خويه (ص ٣٠٣) في آخر كتاب الطبري : هي

---

(١) ذكرت الحوانيت في المسالك والممالك لابن خرداذبه (ص ٥٩ طبعة دي خويه في ليدن ، وتاريخ الطبري ٣ : ١٨٥٨-١٨٩٩ ؛ ١٩٠٠ ، ١٩٠٢ ، ١٩٠٣ ؛ ١٩٠٦ ؛ ١٩١٧ - ١٩٢٢ ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ ؛ طبعة بولاق ، ومعجم الاقاليم العربية لسيرتاب (ص ١١٨ طبعة بغداد ، وطبعة = ص ٩٠ من طبعة لستنج في المجلة الاسيوية البريطانية)

(٢) السيارة « انظر الذيل » رقم ١

(٣) قلوس « انظر الذيل رقم ٢ »

(٤) الاعلاق النفيسة (ص ١٨٤ — ١٨٥ طبعة دي خويه ، ليدن)

(٥) الاعلاق النفيسة (ص ١٨٦)

التحسن ، مهما كان ضئيلاً ، فلنا كل الحق أن نسجد في معبد الجمال شكراً على هذا العون ، المتقطع النظير الذي تسديه للخير

واذا أردنا أن نميز هذا الهاتف الخلقي ، الذي تثيره الموسيقى في النفوس ، نجد من حسن الحظ ، شواهد أخرى غير هذه الشواهد التي لاحظناها في تغير السمات ، وان كانت هذه شواهد غنية بمعانيها . أليس في مقدورنا أن نتأمل النفس بدراسة حركاتها ، حين تؤثر فيها الموسيقى ، بدل أن نفحص سمات وجوه غريبة عنا ؟ وأيّنا لم يحس أن الضباب الذي يخيم عليه ، يكون أسرع تبدداً بفعل الموسيقى من انقشاع السحب أمام الشمس . كما انها تحرك في الوقت نفسه كل ما فينا من الخير والحب

وقد عبّر الشاعر شوبير Shober عن هذه الفكرة بوضوح ، في قصيدته عن الموسيقي أوحاها اليه شوبارت « لقد أشعلت في قلبي حبًّا ملتهباً ، وفتحت أمامي أبواب عالم أسمى » ونحن الذين نعشق الموسيقى ندين لها بهذا الانفعال ، والسمو ، ونشوة القلب ، وحالة التجلي أيضاً . وقد عرفنا كل هذه الاحوال بتجارب عديدة وجيلة

ولكن مما عسى أن تتكوّن هذه القوة الخفية ، التي توقظ فينا هذه الرغبة الشديدة في الخير ، هذا « الحب الملتهب » الذي يشير اليه شوبير ؟ هل شخصية الموسيقار الروحية السامية المتلألئة بالحب هي التي تعبر عن نفسها في موسيقاه ، أو انها تطرد أثناءها بقوة طاغية ، تدفعنا في تيارها بلا مقاومة ، الى أسمى أجواء هذه العاطفة . أو هل في طبيعة كل موسيقى وصورتها قوة تعمل في طبيعتنا الخلقية وهي مستقلة عن شخصية الموسيقار ؟ وأخيراً هل يتبدل الانسان حقيقة الى أحسن مما هو عليه بتأثير الموسيقى ؟ أو أن مآل هذا الهاتف الخلقي كمآل خطبة أفلاطون قديس بادوفا للأسماك التي يتحدث عنها الشعر « ما كاد الوعظ ينتهي حتى عاد كل الى طبيعته فأسماك اللوتس ظلت لصوصاً وثعابين البحر عشاقاً ، فالخطبة ساحرة ، غير أن الأسماك كانت هي هي . أي انها ظلت كما كانت » . فهل هذا شأن الموسيقى ، وهل ينتهي الهاتف الذي توجهه للبشر ، الى ما انتهى اليه وعظ القديس انطون ؟ واذا كان هذا الهاتف التهذيبي يثير لذة واقعية ، ألا ينتهي به الأمر الى تأثير دائم ؟ واذا لم يكن الأمر كذلك ، فهل تعم قوة الموسيقى التهذيبية بالضعف ، أو تتهم الجنس البشري بالعجز والنقص ؟

ان التجارب التي تمت حتى الآن تجيب إجابة لا تؤيد كل التأييد هذا السؤال من وجهه لأنه اذا كان الانسان يتزع حتماً نحو الكمال بتأثير الموسيقى ، فينبغي علينا نحن الموسيقيين ،

الذين نخضع لتأثيرها على الدوام ، أن تكون الخلاصة النهائية لاخلاق الانسانية ، لان أمواجها المطهرة تدفعنا كل يوم وترمينا في عبابها العاصف . ومع ذلك فاني أخشى أن لا يكون الموسيقي على العموم أحسن طبعاً أو أحط خلقاً من الذين يمتون الى حرف أخرى . واذا كان بين أفذاذ الملهمين ، من لهم شخصيات سامية ظاهرة أمثال باخ وبتهوفن وموزارت وشوبارت ، فانه يوجد من أصحاب العبقرية المبدعة ، من لا تثير حياتهم في نفوسنا اعجاباً من غير تحفظ . في نفوس هؤلاء المبدعين ، وهي الينابيع الأصلية للموسيقى الحقيقية ، التي تجعلنا نحس الرفعة والحماسة والصفاء ، ما يكدر صفوها من البواعث الدنيئة . كما ان حياة هؤلاء الرجال العظماء تنطوي على أعمال لا عظمة فيها ، وعواطف وضيعة

أفلا يبدو لنا بعيد ذلك أن هاتف الموسيقى التهذيبي ، ليس له إلاّ آثار عابرة تعمل في النفس ، على نحو ما يعمل التيار الكهربائي في قطعة الحديد المغطسة التي تكتسب حين يتم التماس قوة لا تلبث أن تزول حين ينقطع ، ومن ثمّ تعود قطعة من الحديد هامدة ؟

وأنا لا أعتقد انهُ ينبغي لنا ان نضع أهمية القوة التهذيبية للموسيقى موضع الشك ، كما اني لا أرتاب أيضاً في أن الانسان على استعداد للانتفاع بها جديًّا . غير انهُ من الملائم حينئذٍ أن نجعل آمالنا متواضعة وأن نسلم بأنه ليس من المحتوم أن تقودنا الموسيقى الى الفضيلة والكمال ، كما انهُ من المحتمل أن تردنا الى حالة أحسن . وأنا مقتنع بذلك شخصيًّا . ولكي نتحقق من هذه الدعوى ، التي تفيض بالأمل ، أود أولاً ان أحلل القوى التهذيبية للموسيقى تحليلاً عميقاً . ثم نتحدث عن نتائجها المحتملة

ومن رأيي ان قوى الموسيقى التهذيبية لها ثلاثة مظاهر : وسالة ، وتفسير ، ومقياس للقيم الخلقية . واني لأجد صعوبة هائلة في توضيح النقطة الأولى : وهي كيف تبدو لي الموسيقى رسولاً من مملكة الاخلاق ؟ فهي توارى وجهها كما توارى الملائكة الصغيرة عيناها بجناحين من أجنحتها في معبد الرب ومن ثم لا نستطيع ان نراها الرؤية التامة . واذا عدلنا عن هذا النهج في التشبيه ، فاننا نعجز عن ادراك ماهيتها ادراكاً عقليًّا واضحاً ، ليتسنى لنا أن نعبر عنها تعبيراً يمكن صياغته لفظيًّا . فقد عمد تقريباً كل شاب من المولعين بالموسيقى ، بحث في مدينة نيويورك ، فرحه الى الموسيقيين المشهورين السؤال التالي : «ما هي الموسيقى ؟» وقد بدا لي ان الاجابات التي كنت أعرفها ، وكذلك الردود التي تلقاها الشاب ، كانت كلها مقنعة بالمغالطات من ناحية ، وغير وافية من ناحية أخرى . ولم أرد أنا عليه لأني أحسست العجز ، غير أني كثيراً ما عاودت البحث ، منذ هذه اللحظة عن